

مفاتيح التدبر

ومراقبي التفكير

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

مفاتيح التدبّر ومراقب التفكير

من إصدارات

دائرة الشؤون الإسلامية بالشارقة

كلمة الدائرة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسّلام على أشرف
الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
وبعد: فيسرُّ دائرة الشؤون الإسلامية بالشارقة - انطلاقاً من
رسالتها السامية، ودورها الريادي في نشر الوعي الإسلامي في
المجتمع - أن تقدّم هذا الإصدار الجديد، لجمهور القراء من
الراغبين في الارتواء من معين القرآن، والانتفاع به في حياتهم.
وقد تضمّن هذا الكتاب مباحث نفيسة في موضوع تدبّر
القرآن الكريم، وبيان طرائق استجلاء معانيه، وكيفية استحضار
هداياته، وذلك بلغة واضحة، وأسلوب ميسر، ليكون عوناً
للمسلم على فتح قلبه لخطاب ربّه، والارتقاء بروحه وفكره،
تحقيقاً لقوله تعالى:

﴿كِتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وامتثالاً لقول نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « لا يشكر الله

من لا يشكر الناس » [رواه أحمد]، فإننا نشكر حكومتنا الرشيدة،

وصاحب قيادتنا السديدة، صاحب الشمو الشيخ الدكتور

سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد،

حاكم إمارة الشارقة - حفظه الله ورعاه -، الذي شيد صرح العلم

والحضارة والأخلاق في الإمارة؛ فلولا الله ثم دعمه للعلم

والعلماء والمثقفين لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه من الخير،

ونسأل الله جلّ في علاه أن يحفظ سموّ الحاكم، وأن يجزيه عنا

كل خير، وأن يجعل أوطاننا آمنة مطمئنة، وأن ينفع بهذا الإصدار

الإسلام والمسلمين، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى

آله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدَمَةٌ

الحمد لله الذي أنزل كتابه العزيز هُدىً للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان، وجعل تدبره من مقاصد إنزاله، الذي به تحيا القلوب، وتشرح الصدور فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لم ينزله الله جَلَّ جَلَالُهُ للتلاوة فحسب، بل أنزله ليكون منهجاً للحياة، ودستوراً للإيمان، وكتاباً للعلم، وميداناً للعمل، وليتفكر المتدبرون في معانيه، ويسبروا أغوار مقاصده ومراميّه.

ولقد كان التدبر سمت الصالحين، ودأب العلماء العارفين،
إذ هو الطريق إلى العلم النافع، والعمل الصالح، والثبات على
صراط الله المستقيم.

وهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم هو محاولة
لجمع جملة من المفاتيح المعينة على التدبر، وذكر بعض الآثار
المباركة المترتبة عليه، مع الإشارة إلى ما يعين المسلم على
استحضار معاني القرآن في عباداته وحياته اليومية، وقد روعي في
صياغته أن يكون ميسراً، قريباً من القلوب، بعيداً عن التعقيد،
جامعاً بين التأصيل الشرعي والجانب التربوي الإيماني.

نسأل الله جلّ وعلا أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه
الكريم، ونافعاً لعباده المؤمنين، وأن يفتح لنا ولكم أبواب فهم
كتابه، ويرزقنا لذة تلاوته وحسن العمل به، إنه ولي ذلك والقادر
عليه.

أولاً: مفهوم تدبر القرآن:

التدبر في اللغة يدل على النظر في العواقب، ومنه قولهم: (تدبر الأمر) أي: تأمله والنظر في إدباره وما يؤل إليه في عاقبته ومتنهاه^(١).

وأما معنى تدبر القرآن في الاصطلاح: فهو التأمل العميق في آيات القرآن، لاستخراج ما فيها من هدى وحق، ومعرفة مراد الله من كلامه، قال الخازن: «ومعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه، وتفكر في حكمه، وتبصر ما فيه من الآيات»^(٢)، وقال أبو حيان صاحب البحر المحيط: «هو التفكير في الآيات، والتأمل الذي يُفَضِّي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء»^(٣).

(١) تفسير الكشاف: ١ / ٥٤٠.

(٢) تفسير الخازن: ١ / ٤٠٢.

(٣) البحر المحيط: ٩ / ١٥٣.

ما بين التدبر والتفسير:

إن الأصل اللغوي لكلمة "التفسير" يدل على بيان الشيء وإيضاحه^(١)، فالمقصود به نقل الشيء من حال الغموض والخفاء إلى حال الظهور والبيان.

أما في الاصطلاح، فالتفسير هو: علم يُعنى بدراسة ألفاظ القرآن الكريم من حيث دلالتها على مراد الله تعالى، وفقاً لما يستطيعه البشر من الفهم^(٢).

وانطلاقاً من هذا، فإن العلاقة بين التفسير والتدبر علاقة ترابط وتلازم؛ إذ إن فهم مراد الله من كلامه لا يتحقق إلا عبر تدبر عميق وتأمل ونظر متأن، وفي المقابل، لا يصح التدبر إلا بعد معرفة المعاني وتفسير النصوص.

(١) معجم مقاييس اللغة: ٤/ ٥٠٤.

(٢) قواعد التفسير: ١/ ٢٩.

فضل وشرف التدبر والتفكير في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

من المعلوم أن شرف الشيء يتبع شرف ما تعلّق به، ولما كان التدبر متعلقًا بكلام الله عز وجل، فإنه يُعدُّ من أشرف الأعمال وأعظمها قدرًا.

فالتدبر هو شأن أهل العلم والبصيرة، أولئك الذين يفقهون آيات الله ويتأملون معانيها بعقولهم، ويعملون بها بجوارحهم، ويعرفون قدر التدبر ومنزلته من كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الإمام الآجري رَحِمَهُ اللهُ: «والقليل من الدّرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبّره، أحبُّ إلَيَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكير فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك، والسنة، وأقوال أئمة المسلمين»^(١).

(١) أخلاق أهل القرآن: ص ١٦٩.

أهمية التدبر:

يمكن إدراك أهمية التدبر من جوانب متعددة، من أبرزها:

١. أن الله سبحانه وتعالى جعل التدبر غاية من غايات إنزال القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقد علق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ على هذه الآية بقوله: «وَأَمَّا كَوْنُ تَدَبُّرِ آيَاتِهِ مِنْ حِكْمٍ أَنْزَالِهِ، فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ، بِالتَّحْضِيضِ عَلَى تَدَبُّرِهِ، وَتَوْيِيخٍ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْهُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]»^(١).

٢. أن التدبر من صميم النصيحة لكتاب الله عزَّ وجلَّ.

عن تميم بن أوس الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شرح الحديث: «وأما النصيحة لكتاب الله، فَشِدَّةُ حُبِّهِ وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ؛ إِذْ هُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ، وَشِدَّةُ الرِّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ، وَشِدَّةُ الْعَنَاءِ لِتَدْبِرِهِ وَالْوَقُوفُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لَطَلَبُ مَعَانِي مَا أَحَبَّ مَوْلَاهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ، أَوْ يَقُومَ بِهِ لَهُ بَعْدَ مَا يَفْهَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّاصِحُ مِنَ الْعِبَادِ يَفْهَمُ وَصِيَّةَ مَنْ يَنْصَحُهُ، وَإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُ مَنْهُ، عُني بفهمه؛ ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب ربه؛ يُعْنَى بفهمه ليقوم لله بما أمره به كما يُحِبُّ ويرضى، ثم ينشر ما فهم في العباد ويدمى دراسته بالمحبة له، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بأدابه»^(٢).

(١) رواه مسلم: (٥٥).

(٢) جامع العلوم والحكم: ص ٢٠٠.

٣. التدبر هو الطريق إلى معرفة الله جل جلاله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو الطريق إلى معرفة صراطه المستقيم الذي أمر العباد بسلوكه:

قال الآجري رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تدبر كلامه، عرف الربَّ عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تَفَضُّله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فَرَضٍ عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حَذَّرَه مولاه الكريم، ورغب فيما رَغَّبَه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وَعَزَّ بلا عشيرة، وَأَنَسَ بما يستوحش منه غيره، وكان هَمُّه عند التلاوة للسَّورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلو؟! ولم يكن مراده: متى أختتم السَّورة؟! وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب؟! متى أزدجر؟! متى أعتبر؟! لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة»^(١).

(١) أخلاق أهل القرآن: ص ٣٦ - ٣٧.

٤. إنكار الله ﷻ على من لم يتدبر القرآن؛ حيث قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْرَعَانٌ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْرَعَانٌ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال العلامة الشنقيطي: «ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم -أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها- فإنه معرض عنها، غير متدبر لها؛ فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا أَلُفْرَعَانٌ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]»^(١).

ثمرات التدبر:

للتدبر ثمرات جليلة، وفوائد عظيمة، يمكن إجمالها بالآتي:

١. التدبر يُثمر في القلب الإيقان ويُثمي في الروح الإيمان:

فتأمل معاني القرآن والتفكر في آياته يجعل المؤمن يرى دلائل صدق الله ووعدته في كل آية، فيزداد يقينه بأن هذا الكتاب من عند الله، ويقوى إيمانه في قلبه.

فعندما يتدبر المؤمن قصص القرآن، ويرى نصر الله جلَّ جلاله لأوليائه وخذلانه لأعدائه، كقوله تعالى بعد ذكر ما حصل يوم بدر: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فيوقن بأن وعد الله حق ولا شك.

وعندما يتفكر في آيات الخلق والقدرة على الرزق والإحياء والإماتة والبعث والنشور، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٠-١١]، يزداد المتدبر معرفة بربه، وخشوعاً وخضوعاً لهذا الخالق العظيم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فينمو إيمانه ويتجدد في قلبه حيناً بعد حين.

٢. التدبر هو سبيل العمل بما جاء في القرآن العظيم من أوامر ونواهٍ، والاعتبار والاتعاظ بما ورد فيه من أمثال وقصص. فمن تلا القرآن من غير تدبر نال أجر التلاوة، فإذا تدبر الآيات فإنه بذلك يكون قد حقق المقصود من إنزال القرآن، فيفهم القارئ مراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في أوامره ونواهيه، وما تضمنه كتابه الكريم من أخبار وقصص، فيعمل بما أمره الله به، ويجتنب ما نهاه عنه، ويتعظ بكل واقعة، ويعتبر بكل حادثة، فالتدبر هو

جسر العبور ما بين ضفة قراءة القرآن إلى ضفة الاهتداء به والانتفاع بما فيه.

٣. التدبر باعث على محاسبة النفس ومراجعتها:

حينما يقرأ القارئ ويتدبر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، فإن هذه الآية تبصره بما سيقدمه لآخرته فتوقظه من غفلته، وتدعوه إلى محاسبة النفس في الدنيا، ليكثر من الأعمال الصالحة ويستقل من السيئات، وهذا هو ثمرة التدبر، ومرقاه للعلو في الدنيا والآخرة.

٤. التدبر مسلك العلم بما يُحبه الله وما يُبغضه، وبه يُدرك

المؤمن صفات أوليائه ليكتسبها، وخصال أعدائه ليجتنبها.

الآيات التي دلت ما يحبه الله عزَّ وجلَّ كثيرة في كتابه الكريم، ولو تأملها القارئ متدبراً بها، لاهتدى إلى الاتصاف بما يحبه الله تعالى من الصفات كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل

عمران: ٧٦، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وغيرها من الآيات، فيسعى المتدبر بها إلى التخلص بالصفات التي يحبها الله تعالى، ويسعى إلى الابتعاد عما يبغضه الله من الآيات كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، والآيات في ذلك كثيرة.

٥. التدبر هو أفضل الوسائل لتلين القلوب وترقيقها:

لقد وصف الله تعالى في كتابه العظيم تأثر الصالحين، وحال قلوبهم عند تدبرهم كلامه فقال: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، فمن أراد أن يتأثر بالقرآن حق التأثر ويلين قلبه فعليه بتدبر القرآن.

٦. من أكثر تدبر القرآن كثرت أجوره ورحمه الله عزَّ وجلَّ:

سبيل التدبر إما باستماع القرآن أو تلاوته، فكلما أكثر العبد تلاوة القرآن لتدبره، ازدادت حسناته، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الْم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(١).

وكلما أكثر العبد من استماع القرآن لتدبره، فإنه تصيبه رحمة الله جَلَّ جَلَالُهُ - بإذنه - قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ومن تُلِّي عليه القرآن، فلم يستمع له وينصت، فإنه محروم الحظ من الرحمة، وقد فاته خير كثير^(٢).

(١) رواه الترمذي: (٢٩١٠) وسيأتي الحديث بتمامه في الصفحة رقم: ٢٦.

(٢) تفسير السعدي: ص ٣١٤.

واستماع القرآن سنة عظيمة لها أجرها وثوابها، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمِعَهُ مِنْ غَيْرِي»^(١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ النَّوَافِلِ كَثْرَةُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَسَمَاعِهِ بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَفَهُمٍ»^(٢).

شروط التدبر:

التدبر أمرٌ نسبيٌّ، فالناس مختلفون في نتائج تدبراتهم باختلاف استعداداتهم العقلية والعلمية والإيمانية، بل قد تختلف النتيجة لدى المرء نفسه بحسب أحواله المتنوعة التي يتدبر بها القرآن، وذلك بسبب التفاوت في مقدمات التدبر ومؤثراته، والاستعداد النفسي.

(١) رواه البخاري: (٥٠٤٩)، ومسلم: (٨٠٠) واللفظ له.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٨٠.

وعليه فإن الشروط الرئيسة للتدبر ثلاثة:

الشرط الأول: وجود المَحَلِّ القَابِلِ للتدبُّر (محل التدبر).

الشرط الثاني: تحقيق عملية التدبُّر (عملية التدبر).

الشرط الثالث: فهم النَّصِّ المتدبَّر (نتيجة التدبر).

وقد جمع الله تعالى شرطين من هذه الشروط في آية واحدة،

وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فذكرت الآية صراحة الشرطين الأولين، وأما الشرط الثالث

فقد دلَّت عليه بطريق اللزوم؛ إذ إن إلقاء السمع لا بد أن يكون

مع فهم الكلام المسموع، وإلا فإن الاستماع لخطاب لا يفهم -

كما لو كان بلغة أعجمية لا يفهمها السامع - لا يُحَقِّقُ الغاية

المطلوبة من فهم مراد المتكلم.

الشرط الأول: وجود المَحَلِّ القَابِلِ للتدبُّر (محل التدبر):

المقصود هو وجود القلب الحي المتدبِّر، والعقل المتفكِّر، الخالي من الموانع؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال الزجاج: ومعنى ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: من صُرف قلبه إلى التفهُم، ألا ترى أن قوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُصَى﴾ أنهم لم يستمعوا استماع متفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع .. ومعنى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يسمع، ومعنى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: وقلبه فيما يسمع^(١).

فمتى ما كان القلب حيًّا نقيًّا، والفكر يقظًا، والعقيدة سليمة، مع الابتعاد عن اتباع الأهواء والشهوات، أثمر ذلك للمتدبر الانتفاع بكتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ، والتأثر بكل خلق رفيع وفعل نبيل

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥ / ٤٩.

في القرآن، ذلك أن القلب إذا كان رقيقاً ليناً، سهّل عليه تقبُّل العلم، ورسخ فيه وثبت وأثمر أثره، أما إذا كان قاسياً غليظاً، صَعُب عليه قبول العلم، فلم يرسخ فيه ولم يُؤثّر.

وذلك مصداق قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّة، قبلت الماء، فأنبتت الكَلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كَلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

(١) رواه البخاري: (٧٩)، ومسلم: (٢٢٨٢).

وورد في بعض الآثار: «إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها»^(١)، «أوعية» أي: حافظة متدبرة لما يرد عليها، «فخيرها أوعاها» أي: أحفظها للخير^(٢).

كما يلزم أن يتصف القلب بالطهارة من الأخباث والسلامة من الأكدار؛ ليزكو فيه العلم ويثمر ثمرًا نافعًا، وإلا فإن دخله كدر أو خبث - كالغل والحقد والحسد، وغيرها من أمراض القلوب - أفسد ما فيه من العلم، فصار كالزرع الذي خالطه عشب ضار، فإن لم يمنع البذور من الإنبات، حال بينها وبين الكمال وجودة الثمر، وهذا أمر ظاهر لأصحاب البصائر.

ولذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يبدؤون بتعلم الإيمان قبل القرآن؛ فقد روى جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا مع النَّبِيِّ

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (١٤١٠٠).

(٢) فيض القدير: ٥٤٨ / ٢.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِتْيَانُ حَزَاوِرَةَ^(١)، فَيُعَلِّمُنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ، فَازِدُنَا بِهِ إِيمَانًا^(٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَقَدْ عَشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنْ أَحَدُنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَعَلَّمُ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَوْقِفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ. ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاكِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَوْقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَشْرُهُ نَشْرَ الدَّقْلِ^(٣)»^(٤).

وبقدر ما يكون القلب حيًّا بالإيمان وبمعاني القرآن تكون قوة تأثيره وتدبره واتعاظه، فقد يشتد أحياناً، ويضعف أحياناً أخرى، وربما يزول بالكلية. وقد دلَّ على ذلك ما ورد في مواضع

(١) جمع حَزَوْر، وهو الذي قارب البلوغ. انظر: النهاية لابن الأثير: ١ / ٣٨٠.

(٢) رواه ابن ماجه: (٦١).

(٣) هو رديء التَّمَرِّ وَيَابِسُهُ. انظر: النهاية لابن الأثير: ٢ / ١٢٧.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک: (١٠١).

عديدة من القرآن الكريم من ذكر الطبع على القلوب، والختم عليها، وإزاعتها عن الحق. فصاحب القلب المختوم أو المقلوب لا ينال نصيباً من التدبر ولا من الاعتبار والتفكير، ولا ينتفع بما يسمعه أو يتلوه من آيات الله عز وجل، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، قال: «كان المنافقون يجلسون عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يخرجون فيقولون: "ماذا قال أنفأ؟!" ليس معهم قلوب!»^(١).

والقلوب تختلف من حيث حالتها الإيمانية فيمكن أن تمرض بعد النقاوة، أو تموت أو يختم عليها -والعياذ بالله-

(١) الدر المشهور: ٦٠٨ / ٧.

وقد يقوى بها الإيمان وقد يضعف، روى عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الإيمان لَيَخْلُقُ في جوف أحدكم كما يَخْلُقُ الثوب الخلق؛ فسلوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»^(١).

وقد تجد أن القرآن قد يؤثر في المسلمين العصاة أو في غير المسلمين عند سماعه، فيكون ذلك سبباً في هدايتهم للحق، أو لدخولهم الإسلام أساساً، وقد حصل هذا في الماضي وما يزال يتكرر في الحاضر؛ ومن الشواهد على ذلك ما وقع لجبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه، إذ سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (١٤٦٦٨)، ومعنى (لَيَخْلُقُ) أي: يكاد أن يبلى.

انظر: فيض القدير: ٢ / ٣٢٣.

وَالْأَرْضَ بَلَّ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ
الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ! ﴿١﴾.

قال الخطابي: «كأنه انزعج عند سماع هذه الآية؛ لفهمه
معناها، ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة، فاستدركها بلطف
طبعه»^(٢).

الشرط الثاني: تحقيق عملية التدبر (عملية التدبر):

التدبر يتحقق بطريقتين أصيلتين هما: الاستماع، أو التلاوة،
كلاهما مع حضور القلب وانصياع الفكر.

فأما الاستماع: فالأصل فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ
الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:
٢٠٤].

(١) رواه البخاري: (٤٨٥٤).

(٢) فتح الباري: ٨/ ٦٠٣.

وهذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يُتلى، فالإنصات يكون بترك التحدث، أو الاشتغال بغير القرآن عند استماعه، وأما الاستماع فهو أن يُلقِي سمعه ويُحْضِر قلبه، ويتدبر ما يستمع^(١).

وحُسْن الاستماع من الأفعال التي مدحها الله جَلَّ جَلَّالُهُ، فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]، وذم من كان على خلاف هذا الوصف فقال: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]^(٢).

وقال تعالى أمرا نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣]؛ لأنه بحسن الاستماع ينال الفهم عن الله تعالى.

(١) تفسير السعدي: ص ٣١٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ١٧٦.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قال لي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقرأ عليَّ القرآن قال: فقلتُ يا رسول الله، أقرأُ عليكَ وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمعهُ من غيري. فقرأتُ النساءَ حتَّى إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، رفعتُ رأسي -أو غمزني رجلٌ إلى جنبي-، فرفعتُ رأسي فرأيتُ دُموعهُ تسيلُ»^(١).

وهذا الاستماع الذي استمعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الاستماع الذي يتحقق به التدبر، ولذا فقد بدا عليه التأثر جليًّا، لأن المتدبر حينما يستمع إلى القرآن فيتفاعل مع معانيه ويتفكر بها، فلا بد أن تتحرك جوارحه متأثرة بما يسمع من كلام الله عزَّ وجلَّ، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

(١) رواه البخاري: (٥٠٤٩)، ومسلم: (٨٠٠) واللفظ له.

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال عزَّ شأنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

والمستمع أقوى على التدبر، ونفسه أخلى وأنشط من نفس القارئ؛ لاشتغاله بالقراءة، وتحسين الصوت، وتجويد الأحكام^(١).

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا اسْتَمَعَ الْعَبْدُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ عَلَى مَا يُحِبُّ اللَّهُ أَفْهَمُهُ كَمَا يُحِبُّ، وَجَعَلَ لَهُ فِي قَلْبِهِ نُورًا»^(٢).

وقد قص علينا الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن من أخبار الجن، ما فيه خير مثال للاستماع الذي يحصل به التدبر، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ

(١) فتح الباري: ٩ / ٩٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ١٧٦.

صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿[الأحقاف: ٢٩-٣١]﴾.

فالجن أنصتوا للقرآن إنصاتا يتحقق به المقصود من إنزال القرآن ألا وهو التدبر والافتكار، والاتعاظ والادّكار، فعادوا إلى أقوامهم مذكّرين ومبشرين بعد أن كانوا معرضين مدبرين عن الحق، فسبحان الله الهادي الموفق لكل خير.

وعلى الضد من ذلك، فإن غير المسلمين لما أدركوا قوة تأثير القرآن وخطورة الاستماع إليه، سعوا إلى صرف الناس عنه، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] والله الغالب على أمره.

وأما طريق التدبر الآخر: فهو التلاوة التدبرية: وهو أحد مفاتيح التدبر العظمى، وقيدت التلاوة بكونها تدبرية، لأن من التلاوة ما يكون للحفظ أو المراجعة ونحوها، وليس هذا النوع من التلاوة هو المقصود هنا.

فإذا التزم القارئ بما يلي من أمور في تلاوته واستماعه، كان ذلك أبلغ في تحصيل التدبر والانتفاع بالقرآن، ومن ذلك:

أولاً: مفاتيح التدبر قبل التلاوة (٥ مفاتيح):

❁ المفتاح الأول: الوضوء قبل القراءة:

الواجب على من أراد قراءة القرآن أن يكون مستعداً لها بالوضوء والتطهر، عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠]، ولما رواه الإمام مالك رحمه الله

بسنده، أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر و بن حزم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»^(١).

وأما قراءة القرآن بغير مس المصحف فهي جائزة لمن لم يكن متوضئاً، إلا أن الأفضل في حق من أراد تدبر القرآن أن يكون دائماً على طهارة، تعظيماً لكلام الله جَلَّ جَلَالُهُ، وتطهيراً لبدنه، وتهيئةً لقلبه الذي تحلُّ فيه معاني القرآن العظيمة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطهور شطر الإيمان»^(٢). قال النووي: «أجمع المسلمون على جواز قراءة القرآن للمحدث والأفضل أنه يتطهر لها»^(٣).

(١) الموطأ: (٢٣٤).

(٢) رواه مسلم: (٢٢٣).

(٣) المجموع للنووي: ٦٩/٢.

❁ المفتاح الثاني: اختيار وقت التلاوة المناسب:

لا شك أن أفضل الأوقات: الليل، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: «هو أجدر أن يفقه في القرآن»^(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجود بالخير من الريح المرسلة»^(٢).

(١) رواه أبو داود: (١٣٠٤).

(٢) رواه البخاري: (٦)، ومسلم: (٢٣٠٨).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ عَنْ هَذِهِ الْمُدَارَسَةِ اللَّيْلِيَّةِ:
«المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مَطْنَةٌ ذَلِكَ؛
لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية»^(١).
فِيُسْتَحَبُّ لِلْمَرْءِ أَنْ يُعْنِيَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي اللَّيْلِ، وَلَا سِيَّما فِي
صَلَاةِ اللَّيْلِ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ وَأَثَارٌ كَثِيرَةٌ^(٢).

وَعَنْ سَبَبِ رَجْحَانِ وَقْتِ اللَّيْلِ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِنَّمَا
رَجَحْتُ صَلَاةَ اللَّيْلِ وَقِرَاءَتَهُ؛ لَكُونِهَا أَجْمَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَبْعَدُ عَنِ
الشَّاعِلَاتِ وَالْمُلْهِياتِ وَالتَّصْرِيفِ فِي الْحَاجَاتِ، وَأَصُونُ عَنِ

(١) فتح الباري لابن حجر: ٩/ ٤٥.

(٢) ومنه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ فِي اللَّيْلِ لِسَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ
اللهُ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ» رواه البخاري: (٧٥٧)،
وغير ذلك من الآثار.

الرياء وغيره من المُحِبَّات، مع ما جاء به الشرع من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء بالرسول كان ليلاً^(١).

✽ المفتاح الثالث: اختيار حالة التلاوة الأصلح لنفسه والأجمع لقلبه:

لا شك أن أصلح الأحوال هو التلاوة في الصلاة حال القيام بصلاة الليل للأدلة الآنفة^(٢)، ولما ذكرناه من تعليقات العلماء في النقطة السابقة، ثم الحالة الأدنى من الحالة السابقة: التلاوة في الصلوات عمومًا، فهي أفضل من القراءة في غير الصلاة، ثم الحالة الأدنى من الحالة السابقة: التلاوة حال الطهارة، فهي أفضل من التلاوة من غير طهارة ، وهكذا فكلما كان حال المتدبر أكمل كان ذلك أكمل تدبرًا وأحسن حالًا.

(١) التبيان: ص ٦٤.

(٢) انظر ص ٢٧ وما بعدها.

وذلك لا يعني لزوم هذا الترتيب، وإنما ينظر في الحالة الأصلح للتدبر، فلو أن أحدًا كانت تلاوته أو استماعه في غير الصلاة أدعى لتدبره وتفكره في الآيات، فإنه بلا شك أن هذه الحالة هي الأصلح لقلبه ليتمكن من الاتعاظ والتدبر.

✽ المفتاح الرابع: إخلاء النفس من العوائق والهموم التي تُشَتُّ الفكر وتُشغل القلب:

وذلك حتى يكون الذهن صافيًا، والقلب مهياً لتلقي وتحمل معانيه، فكلما تجرّد القارئ من الهموم المقلقة، والملهيات الدنيوية كالنظر في الهاتف المتحرك ونحوه، كان أقرب إلى التدبر، وأقدر على استيعاب المعاني، إذ لا يجتمع نور القرآن مع قلب مهموم بهوم الدنيا، مشغول بملهياتها، أو كانه همه آخر السورة، ولهذا كان السلف يحرصون على قراءة القرآن في أوقات السكون والطمأنينة، حيث تخف الصوارف وتخضع الجوارح.

قال عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تنثروه نشر الدَّقْلِ^(١) ولا تهذُّوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»^(٢).

❁ المفتاح الخامس: البداءة قبل القراءة بالاستعاذة:

وذلك لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

ومن فوائد الاستعاذة التي تعين على التدبر:

١. طرد الشيطان: فالاستعاذة حصن للمؤمن، تدفع وساوس الشيطان وتشويشه الذي يصرف القلب عن معاني القرآن.

٢. تهيئة القلب: فحين يبدأ القارئ بالاستعاذة، يكون قد أعد قلبه للتلقي بنقاء وخشوع، بعيداً عن العوارض المفسدة للتدبر.

(١) هو رديء التمر ويابسُه. انظر: النهاية لابن الأثير: ٢ / ١٢٧.

(٢) أخلاق أهل القرآن للأجري: ص ٣٨.

٣. استحضار العبودية: حيث إن الاستعاذة تذكير للعبد بضعفه وحاجته إلى ربه في كل أمر، ومنها فهم القرآن، فيدخل على التلاوة بروح الخضوع والتسليم.

٤. سلامة الفهم: وذلك بطرد وساوس الشيطان يصفو الفهم، فيتمكّن القارئ من إدراك الهدايات وبلوغ الغايات.

٥. زيادة الخشوع: فالاستعاذة تلين القلب، وتفتح باب الخشوع، وهو مفتاح التدبر والانتفاع بالقرآن.

٦. استحضار نية الفهم والتدبر: بالاستعاذة يتذكر القارئ أنه مقبل على كلام الله العظيم، فيجدد نية التدبر وابتغاء الاهتداء.

ثانياً: مفاتيح التدبر أثناء التلاوة (عشرة مفاتيح)

❁ المفتاح الأول: معرفة المقصد من إنزال القرآن:

من مفاتيح تدبر القرآن وتفهمه: معرفة المقصد الإلهي من تنزيل القرآن للناس، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لَيْدُبَّرُواْ ءَايَاتِهِ ؕ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وهذه هي الحكمة من إنزال القرآن العظيم، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وتكرار النظر فيه، تدرك بركته وخيره^(١).

وإن من موانع فهم القرآن وتدبره: سوء الفهم لحقيقة القرآن الكريم، إذ يظن بعض الناس أن القرآن مجرد كتاب يُقرأ لتحصيل الأجور، أو يُتلى طلباً للبركة، فيضع المصحف في بيته

(١) تفسير السعدي: ص ٧١٢.

أو سيارته دون أن يتجاوزه إلى التدبر والعمل به، أو يراه مجرد كلمات تُتلى في المآتم والمناسبات، أو يتصور أنه نزل لمعالجة أحداث في أزمنة مضت، ولا صلة للقرآن بالواقع المعاصر الذي نعيشه وتعقيداته. وهذه تصورات قاصرة تحول دون الانتفاع بالقرآن، ومن كانت هذه نظره للقرآن، فلن يهتدي لكنوز القرآن وهداياته العظيمة.

وقد وصف الله تعالى كتابه بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].
 فينبغي أن يُنظر إلى القرآن على أنه كتاب هداية لكل الأزمان، فهذا القرآن كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهو الذي يُحيي الله به الأرواح بعد موتها؛ قال جلَّ جلاله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]،

وهو الكتاب الذي نزل لإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

فالواجب على المسلم أن يصحح نظره للقرآن ليتنفع به، ويُقبل على كتاب ربه إقبالاً يليق بعظمته وجلاله وهيبته، فمن وُفق لذلك فليقبل على تدبره وتفهمه، وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه، ولوازمه وما تتضمنه، وما يدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل المتدبر وسعته في ذلك فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه^(١).

(١) تفسير السعدي: ص ٣٠.

❖ المفتاح الثاني: صدق النية وقوة الرغبة في الانتفاع بهدايات القرآن:

لابد للمتدبر إذا أراد أن يفهم القرآن ويعقل معانيه أن يكون مخلصاً في نيته، مريداً بحق وصدق أن يفهم معاني القرآن، ليعقل عن الله جَلَّ جَلَالُهُ مراده في كتابه، فإن التدبر وفهم القرآن عبادة تستلزم الإخلاص لتحقيقها ولقبولها عند الله، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ﴾
 ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

فمن أقبل على القرآن يريد به وجه الله، فتح الله له مغاليق معانيه، وشرح صدره لأنواره، وجعل له من تدبره حياة لقلبه، وهداية لسلوكه.

وأما من قرأه بغير نية صادقة، أو جعل مقصده الجدل أو الرياء به، فإن الله يحجبه عن فهمه، ويحرمه من لذة التأمل فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:

[٢٣]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، - وَذَكَرَ مِنْهُمْ: - وَرَجُلٌ تَعْلَمُ الْعِلْمَ وَعِلْمُهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ. فَأُتِيَ بِهِ. فَعَرَفَهُ نَعْمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعْلَمْتُ الْعِلْمَ وَعِلْمَتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعْلَمْتُ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

لذلك، فإن من أهم مفاتيح التدبر هو تصحيح النية وتجديد القصد، وأن يستشعر القارئ أنه يخاطب بكلام الله العظيم، فيتلقى آياته بقلب حيٍّ مشتاق، وعين دامعة، وعقل حاضر، يرجو الهداية والنور، ويخشى أن يُعرض فيُحرَم.

(١) رواه مسلم: (١٩٠٥).

✽ المفتاح الثالث: استشعار هبة وجلال كلام الله عزَّوجلَّ:

فإذا كان المرء يطيل النظر ويتعمق في معاني رسالة تصله من شخص يوقِّره من الناس، ويقف عند كل كلمة منها متأملاً، فإن الأولى والأجدر بأصحاب القلوب الحية أن يكون ذلك دأبهم مع كلام الله عز وجل، فهو أحق بالتعظيم والتفكير.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «وليعلم أن ما يقرؤه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه؛ فإن التدبر هو المقصود من القراءة»^(١).

✽ المفتاح الرابع: أن يقصد بتلاوته حسن الانقياد وكمال الطاعة:

إذا أخلص المتدبر لله في نيته، فعليه أن ينوي حسن الاتباع لكلام الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ

(١) مختصر منهاج القاصدين: ص ٦٨.

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿[الزمر: ١٨].

وقال جلّ جلاله: ﴿الَّذِينَ عَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ
تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال عبد الله
بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل
حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم
عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله»^(١).

وليس الهدف من إنزال القرآن هو مجرد التلاوة، بل العمل
به والاعتبار بمواعظه وهداياته، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ:
«إن هذا القرآن قد قرأه صبيان وعبيد لا علم لهم بتأويله ولم يأتوا
الأمر من قبل أوله، وقال: ﴿كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا
عَايَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا أتباعه بعلمه، والله ما هو
بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد

(١) تفسير ابن جرير: ٤٨٩ / ٢.

قرأت القرآن كله وما أسقط منه حرفاً واحداً وقد أسقطه كله، ما ترى له في القرآن من خلق ولا عمل، وحتى إن أحدهم ليقول: والله إني لأقرأ السورة في نفس واحد، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الورعة، ومتى كان القراء يقولون مثل هذا؟ لاكثر الله في المسلمين من هؤلاء^(١).

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»^(٢)، وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن أقواماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم»^(٣)، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»^(٤).

(١) مصنف عبد الرزاق: (٥٩٨٤).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري: ١ / ٧٤.

(٣) التراقي: جمع ترقة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق. النهاية لابن

الأثير: ١ / ١٨٧.

(٤) رواه مسلم: (٨٢٢).

فهذا هو المقصد والهدف: أي العمل بهذا القرآن واتباعه،
 فالمتدبر حق التدبر يتصفح القرآن ليؤدب به نفسه، فلا يرضى أن
 يعبد الله بجهل، بل يجعل العلم دليلاً إلى كل خير، يقرأ القرآن
 بحضور فهم وعقل، وهمه العمل بما أمر الله والانتهاز عما نهى،
 لا متى يختم السورة، بل متى يبلغ التقوى والإيمان والإحسان
 في كل شيء، ومتى يتوب ويشكر النعم ويعقل الخطاب ويفقه ما
 يتلو ويجاهد نفسه ويحفظ لسانه وبصره وفرجه ويستحيي من
 الله ويصلح شأنه ويحاسب نفسه ويتزود ليوم المعاد، ويكون
 راضياً بالله واثقاً به متعظاً بزواج القرآن مشغلاً بذكر الله مخلصاً
 في عمله متأهباً للموت مفكراً في القبر والموقف والمنقلب،
 ومحذراً نفسه من النار، فقد حذر الله المؤمنين منها بقوله:
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا
 النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، فالؤمن من العاقل إذا تلا القرآن
 استعرضه كمرآة يرى فيها حسن عمله وقبيحه، فيحذر ما حذره
 مولاه، ويرجو ما وعده، فمن كانت هذه صفته فقد تلاه حق

تلاوته، فكان له القرآن شفيحاً وأنيساً، ونفع نفسه وأهله في الدنيا والآخرة^(١).

✽ المفتاح الخامس: اعتبار المتدبر أن الخطاب القرآني موجه له:

من مفاتيح تدبر القرآن: أن يعتبر المتدبر المتأمل أن الخطاب القرآني موجه لذاته وشخصه، وأنه المعني بها. وقد أدرك الصالحون هذا المعنى فقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فَأَصْغِ لَهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرُ تَوْمَرٍ بِهِ، أَوْ شَرُّ تُصْرَفٍ عَنْهُ»^(٢).

(١) أخلاق أهل القرآن: ص ٧٩-٨١ باختصار.

(٢) سنن سعيد بن منصور: ١/ ٢١١.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَأَوْا
الْقُرْآنَ رِسَائِلَ مِنْ رَبِّهِمْ، فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهَا بِاللَّيْلِ، وَيَتَفَقَّدُونَهَا فِي
النَّهَارِ»^(١).

وقال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ،
فَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ اللهُ، وَإِذَا قَدَّرَ ذَلِكَ لَمْ يَتَّخِذْ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَمَلَهُ، بَلْ
يَقْرُؤُهُ كَمَا يَقْرَأُ الْعَبْدُ كِتَابَ مُوَلَاةٍ، الَّذِي كَتَبَهُ إِلَيْهِ؛ لِيَتَأَمَّلَهُ وَيَعْمَلَ
بِمَقْتَضَاهُ»^(٢).

❁ المفتاح السادس: المفاضلة بين القراءة عن ظهر غيب أو نظرًا من المصحف:

ينبغي للمتدبر أن يحدد الوسيلة التي تحقق لها أقصى غايات
التدبر: أهى القراءة عن ظهر قلب أم من المصحف؟ فالناس في
ذلك مختلفون؛ فليأخذ كل امرئ بما هو أبلغ في حضور قلبه

(١) التبيان لنووي: ص ٥٤.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٢٨٥.

وخشوعه، وإذا تساوى الأمران، فالقراءة من المصحف أولى وأفضل. وهذا القول هو أعدل الأقوال، وقد رجّحه النووي رَحِمَهُ اللهُ^(١).

❁ المفتاح السابع: اختيار الأنسب للقلب بين الجهر والإسرار:

ومن الأمور التي يُستحب مراعاتها: أن يوازن القارئ بين القراءة جهراً أو سرّاً، فيأخذ بما هو أصلح لقلبه، وأجمع لفكره، وقد ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يدل على فضل الجهر بالقرآن؛ فمن ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وزاد غيره: يجهر به^(٢).

(١) التبيان للنووي: ص ١٠٠، والأذكار له: ص ١٠٧.

(٢) رواه البخاري: (٧٥٢٧).

وقال رجل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إني لأقرأ القرآن في ليلة مرة، أو مرتين، فقال ابن عباس: «لأن لا أقرأ إلا سورة واحدة، أحب إلي من أن أصنع ذلك، فإن كنت لابد فاعلا، فاقراً قراءة تسمع أذنك، وتوغيه قلبك»^(١).

وعن ابن أبي ليلى قال: «إذا قرأت فأسمع أذنك، فإن القلب عدل بين اللسان والأذن»^(٢).

وقد يسأل سائل: إنه جاءت آثار بفضل الأسرار وآثار بفضل الجهر بالتلاوة فكيف يكون الجمع بينها؟ فيجيب النووي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الأسرار؛ قال العلماء: والجمع بينهما أن الأسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل؛ بشرط ألا يؤذي غيره من مُصَلٍّ أو نائم أو غيرهما. ودليل فضيلة الجهر أن العمل فيه أكثر؛ ولأنه يتعدى

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه: (١٦١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٣٧٠٩).

نفعه إلى غيره؛ ولأنه يوقظ القلب ويجمع همّه إلى الفكر،
 ويصرف سمعه إليه ولأنه يطرد النوم ويزيد في النشاط، ويوقظ
 غيره من نائم وغافل، ويُنشّطه، فمتى حضره شيء من هذه
 النيات، فالجهر أفضل»^(١).

❁ المفتاح الثامن: ترتيل القرآن:

من مفاتيح تدبر القرآن ترتيله، وبهذا أمر الله تعالى نبيه
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:
 ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].
 وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾
 قال: «بَيْنَهُ تَبْيِينًا، وَلَا تَشْرُهُ نَثْرَ الدَّقْلِ»^(٢)، وَلَا تَهْذُهُ هَذَا الشَّعْر، قَفُوا

(١) الأذكار: ص ١٠٨.

(٢) هو رديء التمر ويابسُه. انظر: النهاية لابن الأثير: ٢ / ١٢٧.

عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرُ السُّورَةِ»^(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفاً حرفاً. وقال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه. والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام، ومنه ثغر رَتَلٍ وَرَتَلٍ، بكسر العين وفتحها - أي التاء -: إذا كان حسن التنضيد»^(٢).

ولم يقتصر سبحانه على الأمر بالفعل ﴿وَرَتِّلْ﴾ حتى أكدّه بالمصدر ﴿تَرْتِيلاً﴾ اهتماماً به وتعظيماً له، ليكون ذلك عوناً على تدبر القرآن وتفهمه^(٣).

(١) موسوعة التفسير المأثور: ٢٢ / ٣٣٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٩ / ٣٧.

(٣) النشر في القراءات العشر: ١ / ٢٠٧-٢٠٨.

الترتيل هو قراءة القرآن ببيان حروفه ووضوح كلماته، بحيث تخرج الحروف من مخارجها الصحيحة، وتؤدي أداءً جيداً، ويُتحرى في القراءة الوقف السليم الملائم للمعاني^(١).

وهكذا كانت قراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ترتيلاً بأناة وتؤدة وخشوع بالغ، فعن يعلى بن مالك أنه سأل أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قراءة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً^(٢).

وعن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها»^(٣).

(١) مدخل في علوم القراءات: ص ١٠٨.

(٢) رواه الترمذي: (٢٩٢٣).

(٣) رواه مسلم: (٧٣٣).

وفي صحيح البخاري عن قتادة قال: «سئل أنس: كيف كانت قراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»^(١).

وكان الصحابة ينهون عن الإسراع بالقراءة إسراعًا يخل بالمعنى؛ فقد تقدم أن رجلاً قال لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إني لأقرأ القرآن في ليلة مرة، أو مرتين، فقال ابن عباس: «لأن لا أقرأ إلا سورة واحدة، أحب إلي من أن أصنع ذلك، فإن كنت لا بد فاعلا، فاقرأ قراءة تسمع أذنيك، وتوعيه قلبك»^(٢).

(١) رواه البخاري: (٥٠٤٦).

(٢) رواه سعيد بن منصور في سننه: (١٦١).

وسبق قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَنْشُرُوهُ نَشْرَ الدَّقْلِ وَلَا تَهْدُوهُ هَذَا الشَّعْرَ، قَفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هُمْ أَحَدُكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»^(١).

والترتيل مستحب للتدبر وغيره لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب^(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الترتيل أفضل من الهدء؛ إذ لا يصح التدبر مع الهدء»^(٣).

✽ المفتاح التاسع: التكرار:

إذا أراد المتدبر أن يتأمل آية من كتاب الله عز وجل يجد فيها موعظة لقلبه أو عبرة لنفسه، فإنه يشرع له أن يعيد قراءة الآية أو

(١) أخلاق أهل القرآن للأجري: ص ٣٨.

(٢) التبيان: ص ٩١.

(٣) تفسير القرطبي: ١٥ / ١٩٢.

السورة ويكررها مرات عديدة، حتى يزداد بها تأملاً وتأثراً، ولو لم يقرأ غيرها في جلسته أو طوال صلاته.

ولقد صح عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآية حتى أصبح يرددها، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ^(١).

وعن عباد بن حمزة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «دخلت على أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي تقرأ: ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، قال: فوقفت عليها فجعلت تستعيد وتدعو، قال عباد: فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيد وتدعو» ^(٢).

وعن مسروق قال: قال لي رجل من أهل مكة: «هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح، أو قرب أن

(١) رواه النسائي: (١٠١٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة: (٦١٧٦).

يصبح، يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبيكي: ﴿أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ أُجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
﴿٦١﴾ [البجائية: ٢١]»^(١).

✽ المفتاح العاشر: فهم ما يُقرأ أو يُسمع من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ

من البديهيات أن مدارك الناس وأفهامهم وتدبراتهم تتفاوت
على قدر ما يمتلكونه من وسائل وأدوات تعين على فهم النص
وتدبره.

وليس القصد أن يُطالب الناس بفهمٍ يضاهي فهم كبار
العلماء، ولكن المطلوب أن يكون لدى القارئ أو المستمع قدرٌ
يكفيه من أدوات الفهم، فالشخص الذي يُخاطب بما لا يفقه

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (١٢٥٠).

إطلاقاً، لا يمكنه أن يتدبر، مهما كان قلبه حياً، أو كان حاضر الذهن عند التلاوة أو الاستماع.

ويدل على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ وَفُرَّأْنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، فالله عَزَّوَجَلَّ خاطب عموم الناس بهذا، ولم يخص العالم بالأمر بالتدبر دون غيره.

فالحاصل أن من أراد تدبر كلام الرب جَلَّ جَلَالُهُ فعليه أن يكون قادراً -ولو بالحد الأدنى- على فهم كلام العرب وأساليبهم في البيان والخطاب.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وينبغي له أن يتَعَلَّمَ أحكام القرآن، فَيَفْهَمَ عن الله مراده، وما فرض عليه، فَيَنْتَفِعَ بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه

ما يتلوه ولا يدرّيه، فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً»^(١).

وقال صاحب أضواء البيان رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا علمت -أيها المسلم- أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله لِيُسْتَضَاءَ به، وَيُهْتَدَى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور؟! ... يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علماً صحيحاً»^(٢).

وليعمد من أراد التدبر -بالمعنى الأيسر- إلى التفسير الميسرة المختصر كتفسير السعدي رَحِمَهُ اللهُ المسمى: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، وتفسير «توفيق الرحمن في دروس القرآن» للشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك، و«عمدة

(١) تفسير القرطبي: ١ / ٢١.

(٢) أضواء البيان: ٧ / ٢٦٣ - ٢٦٤.

التفسير من تفسير الحافظ ابن كثير» للشيخ أحمد شاكر، وغيرهم.

ومن أراد التوسع والتعمق في التدبر، واستنباط معاني القرآن، واستخراج نفائسه، فإنه يحتاج إلى معرفة واسعة بعلوم العربية، والعلوم المساعدة للتفسير^(١)، مع كثرة الاطلاع على كتب

(١) العلوم المساعدة في التفسير هي تلك العلوم التي تُسهم في فهم وتوضيح معاني القرآن الكريم، وتُساعد في تفسيره بشكل دقيق. من أهم هذه العلوم:

١. علوم اللغة العربية:

 - النحو والصرف: لفهم بنية الجمل ومرادفات الكلمات ومعانيها الدقيقة.
 - البلاغة: لفهم أساليب البيان، مثل الاستعارة والكناية والجناس، مما يساعد في تفسير النصوص بشكل أدق.
 - الاشتقاق: لمعرفة أصول الكلمات وفهم كيف تتغير معانيها بحسب السياق.
 - الإعراب: لتحديد الإعراب الصحيح للكلمات في الآية ولفهم المعنى المراد منها.
 - الفروق اللغوية: دراسة الفروق بين الكلمات المتشابهة في المعنى أو الألفاظ، وكيف يمكن أن تؤثر على المعاني التفسيرية.

٢. علم الحديث النبوي والآثار المروية:

 - للاطلاع على علم الحديث لفهم التفسيرات النبوية المتعلقة بالقرآن، وأقوال الصحابة والعلماء السابقين في تفسير النص القرآني.

-
- معرفة وأسباب النزول المروية بالآثار لفهم الظروف التي نزلت فيها الآيات، مما يوضح السياق التاريخي والشرعي للآية.
 - ٣. علم القراءات:
 - معرفة القراءات القرآنية المختلفة الواردة في الآيات، فبعض الاختلافات في القراءات يمكن أن تؤدي إلى تباين وتنوع ظاهر في المعاني.
 - ٤. علم العقيدة:
 - لفهم المفاهيم الصحيحة للآيات العقدية مثل آيات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وأفعاله البديعة.
 - ٥. علم الفقه وأصوله:
 - لفهم الأحكام الشرعية التي ترتبط ببعض الآيات الفقهية.
 - وعلم أصول الفقه لفهم كيفية استنباط الأحكام الفقهية السليمة من الأدلة القرآنية.
 - ٦. علم التاريخ:
 - لفهم سياق الأحداث التاريخية التي قد تساعد في تفسير بعض الآيات التي تتحدث عن وقائع معينة.
 - معرفة الناسخ والمنسوخ من الآيات، ومعرفة السابق واللاحق منها.
 - ٧. علم الطبقات الاجتماعية:
 - لفهم المجتمع التي نزل فيها القرآن، والعادات الاجتماعية المختلفة التي لا بدت زمن نزول القرآن على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
 - هذه العلوم كلها تُساعد في الوصول إلى تفسير دقيق ومعقق للقرآن الكريم، وتُسهم في تدبر معانيه بما يتناسب مع السياق التاريخي واللغوي والديني.

التفسير التي تميز مؤلفوها بالتحقيق والتأصيل، والقدرة على الجمع بين الأقوال أو الترجيح، ومن أبرز التفاسير التي تميزت بالتحقيق والتأصيل: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، الذي جمع فيه أقوال الصحابة والتابعين في تفسير الآيات، بالإضافة إلى آراء علماء اللغة والنحو. وكذلك "تفسير القرآن العظيم" للإمام إسماعيل بن كثير، ويعتبر من أشهر التفاسير التي تميزت بالوضوح والدقة. وكذلك تفسير: "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، الذي يركز على تفسير القرآن بالقرآن، مع توضيح ما يتعلق بها من معاني لغوية وشرعية وأصولية.

وليصاحب الاطلاع على كتب التفسير، حضور مجالس العلماء الثقات في علم التفسير وعلوم القرآن، ليكتسب الأدب والسمت من الشيوخ الأثبات، ويتعلم طرق الاستدلال وسبل الحوار.

الشرط الثالث: العمل بالنص المتدبر (نتيجة التدبر).

بعد كل ما سبق ذكره من مقدمات وأمور تعين على التدبر، فعلى المؤمن المتدبر كتاب ربه عزَّجَلَّ أن يسأل نفسه: ماذا بعد أن تدبرت كتب ربي ووهبني علم معنى الآية كذا وكذا؟ الجواب: هو أن عليه أن يعمل بما علم، إذ المقصود بالتدبر العمل بكتاب ربنا.

فإذا تدبر العبدُ كلامَ الله تعالى بصدقٍ وإخلاص، وأورثه الله علمًا نافعًا ومعرفةً بمراده، فلا يقفَنَّ عند حدود الفهم فقط، بل التدبر مدعاة إلى العمل بما علم، فليمتثل الأوامر، وليجتنب النواهي، وليجعل القرآن منهجًا لحياته وسلوكه.

فإذا استقام على ذلك، وتذوّق حلاوة العمل بالقرآن، تولّدت لديه الرغبة في نقل هذا النور إلى غيره، فيعلّم ما علم، ويدعو بما عمل، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك

رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١)، وليكون من أهل الخيرية في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٢).

وهكذا تكتمل حلقة الهداية: تدبرٌ يولّد علماً، وعلمٌ يقود إلى عمل، وعملٌ يُثمر دعوة وتعليماً، فينتفع الإنسان وينفع غيره، ويُصبح القرآن حياةً متحركة في قلبه وأثراً طيباً في الناس من حوله.

موانع التدبر

قد يحول بين العبد والتدبر موانع تمنعه، أو تقلل انتفاعه بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ - نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها-، فالقلوب تتفاوت في قبولها لمعاني القرآن العظيم بحسب ما يغشاها من

(١) رواه البخاري: (٧٩)، ومسلم: (٢٢٨٢).

(٢) رواه البخاري: (٥٠٢٧).

إيمان، أو كفر أو نفاق، أو ما يعتريها من أمراض وآفات، وهذه الأدوية قد تمنع التدبر بالكلية، أو تضعفه وتقلل أثره، فمن ذلك:

١. الطبع والختم على القلوب:

وهو أشد ما يحجب العبد عن التدبر ونور القرآن، فالطبع على القلب هو الختم على القلب^(١)، فهو غشاوة تغشى القلب فيختم عليه فلا يصله نور ولا هدى ولا فهم.

فقولهم: قد طُبِعَ على قلب فلانٍ، فهو كما قال أبو عبيدة: معناه قد غُشِيَ على قلب فلان بالصدأ والدنس والوسخ^(٢).

وأشار إليه الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ^ط وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا^ط وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا^ط حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ^ط﴾ [الأنعام: ٢٥].

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (طبع)، وتفسير ابن جرير: ٢٦٥/١.

(٢) الزاهر لابن الأنباري: ٣٣٥/١.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةُ سُودَاءٍ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةُ بَيَاضَاءٍ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَاءِ، فَلَا تَضُرُّهُ فَتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مِرْبَادًا كَالْكُوزِ، مُجَحِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»^(١)، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ هَذَا الْحَالِ.

قال الزركشي: «واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب أو في قلبه كبر أو هوى أو حب الدنيا أو يكون غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو معتمدا على

(١) رواه مسلم: (١٤٤).

قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر أو يكون راجعا إلى معقوله وهذه كلها حجب وموانع وبعضها أكد من بعض^(١).

فأعظم أسباب الطبع:

- الذنوب والمعاصي:

الذنوب والآثام والإصرار عليها من أعظم أسباب الطبع على القلب؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه،

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٨١.

وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] ^(١).

- النفاق:

النفاق هو إظهار الإسلام وإبطان غيره، وهو من أسباب الطبع والختم على القلب؛ قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

- الجهل:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

﴿٥٩﴾ [الروم: ٥٩].

(١) رواه الترمذي: (٣٣٣٤)، وابن ماجه: (٤٢٤٥).

الجهل إما عدم العلم بالشيء، وإما علم بالشيء من غير عمل، وكلاهما جهل، حريٌّ بالمؤمن أن يتنزّه عنه، لئلا يطبع على قلبه.

فالجاهل عليه أن يتعلم ويتبصر بدين الله عزَّ وجلَّ كما قال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فمن أراد أن يستنير قلبه بنور القرآن فعليه أن يرفع الجهل عن نفسه.

- تقديم محبة الدنيا على الآخرة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٨].

يوضح الله تبارك وتعالى لعباده حقيقة من حقائق القلوب، وهي أن من قدّم محبة الدنيا على الآخرة، وآثر العاجلة على الباقية، عوقب بالحرمان الهداية وطبع القلب عن الحق؛ فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يبيّن سبب

ضلالهم وغفلتهم، إذ جعلوا الدنيا غايتهم، فصار حبها حاجزاً بينهم وبين نور الإيمان.

فتقديم محبة الدنيا على الآخرة هو أصل الغفلة والقسوة والحرمان من الهداية، وذلك ختمت الآية بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

- اتِّبَاعُ الْهَوَى:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

هذه الآية تُظهر حال من اتَّبَعَ هواه، فمع أنهم يستمعون إلى النبي ﷺ، إلا أن قلوبهم لا تتدبر ولا تتأثر، لأنهم قدَّموا أهواءهم على ما جاء به الوحي. فختم الله على قلوبهم جزاءً لاتباع الهوى وإعراضهم عن الهدى.

فمَن جعل هواه ميزاناً للحق، أضله الله وحرمه نور العلم والإيمان وفهم القرآن.

٢. الاعتناء بالمظاهر أكثر من المخابر:

مما يُعَدُّ من الصوارف عن التدبر: الانشغال المفرط بالظواهر الصوتية، كالمبالغة في تحسين الصوت، أو الاهتمام البالغ بالمقامات النغمية، أو صرف الهمّة كلها لإتقان المخارج وأحكام التجويد وغيرها مما ليس مقصودًا لذاته، ولا شك أن هذه الأمور في الأصل وسائل تُعين على حضور القلب وفهم الخطاب، إذ إن تحسين التلاوة وتجويدها مما حث عليه الشرع، لكن الخطأ أن تتحول الوسيلة إلى غاية، فينشغل القارئ أو السامع بجمال الأداء عن معاني الكلام، فيبقى أثر القرآن على السمع دون أن يصل إلى القلب.

ولا يفهم من ذلك التقليل من شأن التجويد وضبط الأداء أو الحطّ من قدر هذا العلم الجليل - معاذ الله -؛ فإن علم التجويد من أشرف العلوم المتعلقة بكلام الله تعالى، وقد أجمع العلماء على مشروعية تعلمه وتعليمه، والأمر بالتجويد، والأخذ به مما

تضافر عليه العلماء خالفاً عن سالفٍ، وجيلاً عن جيلٍ، وطبقة عن طبقة، بل هو من تمام تعظيم القرآن، ووسيلة أساسية لصيانته من التحريف واللحن. وإنما المقصود أن التجويد غايته الأعظم أن يُوصل المعنى بوضوح ويُعين على حضور القلب، لا أن ينقلب إلى غاية بحد ذاته تشغل عن التدبر والعمل.

فالتجويد إذا أُخذ بقدره الصحيح غداً مدخلاً يوصل إلى التدبر، أما إذا غالى الناس فيه حتى صار القارئ أو السامع لا يجاوز صوته مسامعه، فإنه يتحول إلى مانع من الغاية التي أنزل القرآن من أجلها، وهي الهداية والتركية.

ومن المؤسف أن ترى بعض الناس عند سماع تلاوات القراء، بالأخص عند آيات الوعيد والعذاب، ينشغلون بهزّ الرؤوس والتمايل طرباً بالصوت، بدل أن تتحرك قلوبهم خوفاً من الوعيد أو رجاءً في الوعد. وهذا خلل في الفهم والمقصد؛ فالقرآن لم يُنزل ليُتخذ مادة للألغام والألحان، وإنما أنزل ليُنلى

بتدبر، فتخشع له القلوب، وتدمع له العيون، وتتحرك الجوارح للعمل والاهتداء بنوره.

فالواجب أن يكون أثر الآيات على السامع أثرًا يليق بمضامينها: فإذا سمع آيات العذاب ازداد خوفًا وخشية، وإذا سمع آيات الرحمة امتلأ رجاءً ورغبة، وإذا مرّ بآيات الأوامر عزم على الامتثال، وإذا استمع للنواهي انكفّ وانزجر. أما الانشغال بمجرد جمال الأداء على حساب المقصود الأعظم، فهو من الصوارف التي تحجب القلب عن نور التدبر.

وأما الصالحون الأوائل رَحِمَهُمُ اللَّهُ فقد كانوا يحرصون على الجمع بين حسن الصوت وخشوع القلب، فلا يقفون عند حدود تحسين الحروف، بل يرون أن حقيقة التلاوة أن تُحيي القلب، وتورث الخشية، وتدفع إلى العمل، وفي الأثر: «اقرأوا القرآن

قبل أن يأتي أقوام يقرؤونه يقيمون حروفه كما يقام السهم لا يجاوز تراقيهم^(١)، يتعجلون أجره ولا يتأجلونه^(٢).

فالواجب على المسلم أن يجعل تحسين الصوت والتجويد وسيلةً للتدبر، لا حجاباً عنه، فإن المقصود الأعظم من التلاوة هو الوصول إلى الهداية والعمل بمقتضى كلام الله تعالى.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «وليتخلى التالي من موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التال، فيصرف همته عن فهم المعنى. ومن ذلك أن يكون التالي مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، فهو كالجرب على المرأة، يمنع من تجلى الحق، فالقلب مثل المرأة،

(١) التراقي: جمع تُرْقُوءَ، والتُرْقُوءَةُ: ما فوق الصدر. انظر: التحرير في شرح صحيح

مسلم للأصبهاني: ص ١٥١.

(٢) الزهد لابن المبارك: (٨١٣).

والشهوات مثل الصدا، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإمالة الشهوات مثل الجلاء للمرأة»^(١).

٣. قلة الرغبة في تفهّمه، وتوفر الهمة في الاشتغال بغيره من

العلوم

وهذا حال كثير من الناس للأسف، منشغلون بالدنيا وملذاتها وملهياتها عن نور القرآن وهداياته، وكان شُعبة بن الحجاج رَحِمَهُ اللهُ يقول لأصحاب الحديث: «يا قوم إنكم كلما تقدمتم في الحديث، تأخرتم في القرآن»^(٢)، وإذا كان شُعبة يخاطب طلاب الحديث بهذا فما عساه أن يقول اليوم لطلاب الدنيا؟!!

(١) مختصر منهاج القاصدين: ص ٥٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧ / ٢٢٣.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ عَنْ الْقُرْآن: «حَقَّ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جَهْدِهِمْ فِي الْاِسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ، وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي اسْتِدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا، وَالرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ فِي الْعَوْنِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرِكُ خَيْرًا إِلَّا بِعَوْنِهِ؛ فَإِنْ مِنْ أَدْرَكَ عِلْمَ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ نَصًّا وَاسْتِدْلَالًا، وَوَفَّقَهُ اللَّهُ لِلْقَوْلِ وَالْعَمَلِ بِمَا عِلْمُ مِنْهُ، فَازَ بِالْفَضِيلَةِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَانْتَفَتَ عَنْهُ الرَّيْبُ، وَنَوَّرَتْ فِي قَلْبِهِ الْحِكْمَةُ، وَاسْتَوْجَبَ فِي الدِّينِ مَوْضِعَ الْإِمَامَةِ»^(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ مُخَاطَبًا طُلَّابَ الْعِلْمِ: «وَلَوْ تَفَكَّرُوا لَعَلِمُوا أَنَّ الْمُرَادَ حِفْظَ الْقُرْآنِ، وَتَقْوِيمَ أَلْفَاظِهِ، ثُمَّ فَهْمَهُ، ثُمَّ الْعَمَلُ بِهِ، ثُمَّ الْإِقْبَالُ عَلَى مَا يُصْلِحُ النَّفْسَ وَيُطَهِّرُ أَخْلَاقَهَا، ثُمَّ التَّشَاغُلُ بِالْمُهِّمِ مِنْ عُلُومِ الشَّرْعِ، وَمِنْ الْغَبْنِ الْفَاحِشِ تَضْيِيعَ الزَّمَانِ فِي مَا غَيْرِهِ الْأَهْمُ»^(٢).

(١) الرسالة: ص ١٩.

(٢) تلبیس إبلیس: ص ١١٢.

٤. هموم الدنيا ومشاغليها ومؤثراتها:

من أبرز ما يَصْرِفُ العبد عن التدبر، ويمنعه من استجماع قلبه، تلك الهموم الطارئة والمشاعر المتقلبة التي تُثْقِلُ النفس وتشغل الفكر؛ فالقلق والانفعال والتوتر والفرح المبالغ فيه، أو الألم المستحوذ على الشعور، كلها تحدث تشتتاً ذهنياً يمنع من صفاء القلب، ويحول دون التركيز مع معاني القرآن.

ولهذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن الصلاة في حال حضور المشتتات والمشغلات للمرأة، فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»^(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا وضع عشاء أحدكم، وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء، ولا يعجل حتى يفرغ منه»^(٢).

(١) رواه مسلم: (٥٦٠).

(٢) رواه البخاري: (٦٧٣)، ومسلم: (٥٥٩).

فمن الحكمة أن يختار المؤمن لورده من التلاوة أو الاستماع أوقات السكون، وهدوء البال؛ فحين يقرأ أو يستمع وهو مطمئن النفس، حاضر القلب، كان أقرب إلى التدبر والانتفاع، وأبعد عن الغفلة. فالقرآن لا يُؤتى ثمرته إلا مع صفاء القلب وحضوره، إذ هو خطاب موجه إلى أعماق النفس، لا إلى مجرد الأسماع.

٥. التصورات الذهنية القاصرة:

إن الاعتقاد بأن القرآن نزل لزمانٍ مضى وليس له صلة بواقعنا المعاصر، أو أن يُختزل غرضه في مجرد التلاوة للبركة أو الرقية أو في المآتم والأحزان، من أعظم ما يصرف عن التدبر. فهذا الفهم القاصر يجعل بين القارئ وبين التدبر حاجزاً يمنع من الانتفاع بالقرآن الكريم، فيفقد لذة الفهم، وثمرته الاهتداء بكتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٦. تلبيس إبليس:

إن من تلبيس إبليس الصارف عن التدبر: ترك التدبر بحجة التورّع من القول على الله بغير علم، فيظن بعض الناس أن التدبر لا يجوز إلا لمن بلغ مرتبة الاجتهاد، فيعرضون عن التدبر كله خشية الوقوع في الخطأ، وهذا في حقيقته ورعٌ في غير محله، يُفوّت على صاحبه خيراً عظيماً، ويغلق عليه باب الهداية الذي فتحه الله لكل قارئ ومستمع لكتابه.

فالتدبر المطلوب من عموم المسلمين ليس هو استنباط الأحكام الشرعية أو الخوض في دقائق التفسير، وإنما هو تدبر الهداية، والاتعاظ بالوعد والوعيد، والاعتبار بالقصص والأمثال، واستحضار أن الخطاب موجه إليه. وهذا التدبر لا يُشترط فيه التعمق في علوم التفسير، بل يكفي له حضور القلب وصفاء النية.

أما القول على الله بلا علم فهو تفسير الآيات بما يخالف لغة العرب، أو يضاد نصوص الشريعة، أو يناقض أقوال العلماء المعبرين، لكن التفكير والاعتبار والعمل بالمعنى الظاهر الذي يفهمه العربي من الآيات فليس من القول على الله بغير علم. ولهذا كان السلف يتدبرون القرآن ويتأثرون به، وإن لم يكونوا جميعاً من أهل التفسير.

قال ابن هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «من مكاييد الشيطان: تنفيره عِبَادَ اللهِ من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مُخَاطَرَةٌ، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تَوَرُّعًا»^(١). وعليه فإن قول من قال بأن تدبر القرآن والعمل به يختص بالمجتهدين فقط لا دليل عليه، بل الواجب على كل مسلم قادر أن يتعلم ويفهم القرآن والسنة ويعمل بما علم منهما، ولو بآية أو

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢ / ١٥٦.

حديث واحد. أما العمل بالجهل فممنوع، والإنكار على ترك التدبر عام لكل الناس، ولو كان التدبر خاصاً بالمجتهدين لما احتج الله بالقرآن على غير المسلمين^(١).

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهلك وخاصتك.
اللهم افتح لنا به أبواب التدبر، ووفقنا للعمل بمحكمه،
والإيمان بمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتحكيمه في شؤوننا
كلها.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى
آله وصحبه أجمعين.



(١) أضواء البيان: ٢٥٨ / ٧ باختصار.

فهرس المحتويات

أولاً: مفهوم تدبر القرآن:	٣
ما بين التدبر والتفسير:	٤
فضل وشرف التدبر والتفكر في كتاب الله عزَّجَلَّ:	٥
أهمية التدبر:	٦
ثمرات التدبر:	١٠
شروط التدبر:	١٥
الشرط الأول: وجود المَحَلِّ القَابِلِ للتدبُّر (محل التدبر):	١٧
الشرط الثاني: تحقيق عملية التدبُّر (عملية التدبر):	٢٣
أولاً: مفاتيح التدبر قبل التلاوة (٥ مفاتيح):	٢٨
✽ المفتاح الأول: الوضوء قبل القراءة:	٢٨
✽ المفتاح الثاني: اختيار وقت التلاوة المناسب:	٣٠
✽ المفتاح الثالث: اختيار حالة التلاوة الأصلح لنفسه والأجمع لقلبه:	٣٢
✽ المفتاح الرابع: إخلاء النفس من العوائق والهموم التي تُشَتَّت الفكر وتُشغَل القلب:	٣٣
✽ المفتاح الخامس: البداءة قبل القراءة بالاستعاذة:	٣٤
ثانياً: مفاتيح التدبر أثناء التلاوة (عشرة مفاتيح)	٣٦

- ❁ المفتاح الأول: معرفة المقصد من إنزال القرآن: ٣٦
- ❁ المفتاح الثاني: صدق النية وقوة الرغبة في الانتفاع بهدايات القرآن: ٣٩
- ❁ المفتاح الثالث: استشعار هيبة وجلال كلام الله عَزَّوَجَلَّ: ٤١
- ❁ المفتاح الرابع: أن يقصد بتلاوته حسن الانقياد وكمال الطاعة: ... ٤١
- ❁ المفتاح الخامس: اعتبار المتدبر أن الخطاب القرآني موجه له: ٤٥
- ❁ المفتاح السادس: المفاضلة بين القراءة عن ظهر غيب أو نظراً من المصحف: ٤٦
- ❁ المفتاح السابع: اختيار الأنسب للقلب بين الجهر والإسرار: ٤٧
- ❁ المفتاح الثامن: ترتيب القرآن: ٤٩
- ❁ المفتاح التاسع: التكرار: ٥٣
- ❁ المفتاح العاشر: فهم ما يُقرأ أو يُسمع من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: ٥٥
- الشرط الثالث: العمل بالنص المتدبر (نتيجة التدبر): ٦١
- موانع التدبر ٦٢
١. الطبع والختم على القلوب: ٦٣
٢. الاعتناء بالمظاهر أكثر من المخابر: ٦٩

٣. قلة الرغبة في تفهّمه، وتوفر الهمة في الاشتغال بغيره من العلوم ... ٧٣
٤. هموم الدنيا ومشاغليها ومؤثراتها: ٧٥
٥. التصورات الذهنية القاصرة: ٧٦
٦. تليس إبليس: ٧٧
- فهرس المحتويات ٨٠